بلاغة الحِجَاج في
خطب أبي بكر الصديق رضي الله عنه

د. حزام بن سعد الغامدي
أستاذ البلاغة المشارك بجامعة الباحة

بلاغة الحِجَاج في خطب أبي بكر الصديق رضي الله عنه

د. حزام بن سعد الغامدي
أستاذ البلاغة المشارك بجامعة الباحة

ملخص البحث:

تناولت الدراسة أبرز سمات الحجاج في خطب أبي بكر ﷺ ،حيث تم انتقاء الخطب التي تمثل قضايا الحجاج في خطب الصدّيق ،وتم استنباط أهم السمات الحجاجية في خطب أبي بكر ﷺ ، وقد أبرزت الدراسة سمة من سمات الصديق ، وصفة من صفاته قد وقعت تحت الظل ، حيث عرف منه الناس الرحمة والحلم والبكاء من خشية الله ،فهو الرجل الأسيف ،وغفلوا عن خلة من أجمل خلاله ، وهي قوة العارضة، وفصاحة البيان ،وشدة الإقناع ، والقدرة على إفحام الخصم ، وهذا ما حاولت هذه الدراسة إبرازه وبالله التوفيق .

المقدمة:

" حاججته أحاجه حجاجاً ومحاجّة حتى حججته، أي: غلبته بالحجج التي أدليتُ بها، وحاجّه محاجّة: نازعه الحجة، والحجّة: الدليل والبرهان [١]

" ورجل مِحْجَاج: أي جَدِل " [٢]، قال تعالى: (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه) [٣]

وعلى هذا فإن الحجاج مرادف للجدل، ويكثر ورودهما مترادفين في اصطلاح القدماء، وهذا من شأنه أن يضيّق مجال الحجاج، كما سنأتي إليه في التمهيد.

والحجاج في الاصطلاح هو: جملة من الحجج التي يؤتى بها للبرهان على رأي أو إبطاله، أو هو تقديم الحجج والاستفادة منها.[٤]

والحِجَاج الخطابي أعلى درجات البلاغة، يقول أبو هلال العسكري:" أعلى درجات البلاغة أن تحتج للمذموم حتى تخرجه في معرض المحمود، والمحمود حتى تصيّره في صورة المذموم ".[٥]

والحجاج العقلي البرهاني- كما ذكر أبو الوليد الباجي - أرفع العلوم قدراً وأعظمها شأناً ؛ لأنه السبيل إلى معرفة الاستدلال، وتمييز الحق من المحال، ولولا تصحيح الوضع في الجدل لما قامت حجة ولا اتضحت محجة، ولا عُلِم الصحيح من السقيم ولا المعوجّ من المستقيم.[٦]

---

١ – لسان العرب، مادة:ح ج ج.

٢ – السابق نفسه.

٣ – سورة البقرة،جزء من آية ٢٥٨.

٤ – ينظر: الحجاج في درس الفلسفة، مليكة غبار، أحمد أمزيل، علي أعمور ،أفريقيا الشرق، المغرب ،٢٠٠٦،ص٤٤٦.

٥ – ينظر: كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، ت: علي البجاوي، محمد أبو الفضل، ط١، ١٩٥٢، ص٥٣.

٦ – المنهاج في ترتيب الحجاج ،أبوالوليد الباجي، ص٨.

ولما كانت لحاجة ماسة إلى دراسة الحجاج في خطب الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ؛لأنه يمثّل صورة عالية من البيان العربي في عصر صدر الإسلام ؛ وحيث إن أبا بكر –رضي الله عنه – قد عرض له من الأحداث الجسيمة ما دعاه لإقامة الحجة وإثبات البرهان وإقامة الدليل،وقد كان قمة في البيان وطوداً شامخًا في الحجاج ؛ لذا وجدت الدراسة ميدانًا خصبًا جديرًا بالدراسة.

وقد جاء هذا البحث لدراسة الحجاج في خطب أبي بكر الصديق رضي الله عنه، معتمدا على المنهج الوصفي التحليلي، على النحو الآتي:

– المقدمة بين يديك.

– التمهيد: جعلتها للمفاهيم الاصطلاحية، حاولت فيه بيان التفريق بين الحجاج والجدل، وبيان أنواع الحجاج، والفرق بينه وبين المذهب الكلامي من جهة، وبينه وبين الاستدلال من جهة أخرى، وقد خلصت من التمهيد إلى ترشيح استخدام الحجاج في دراسة خطب أبي بكر رضي الله عنه.

– دراسة تطبيقية للحجاج في خطب أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وهذا يمثل الجزء التطبيقي من الدراسة، وقد انتخبت له تسع خطب ؛ لأنها تمثِّل أهم قضايا الحجاج عند أبي بكر رضي الله عنه،ويبدو فيها الحجاج واضحا، وقمت بدراسة ما فيها من حجاج، ملخِّصاً السِّمات الحجاجية لكل خطبة على حدة.

– خاتمة : لخَّصت فيها أهم قضايا الحجاج عند أبي بكر رضي الله عنه،وأهم السمات الأسلوبية للخطب موضع الدراسة، محاولا إيضاح علاقة تلك السمات بمقاصد المتكلم وأثرها في المتلقي.

* * *

تمهيد:

يُعتبر مفهوم الحجاج من المفاهيم المثيرة للالتباس، ويعود ذلك الى عدة عوامل من أهمها تعدّد استعمالات الحجاج، وتباين تعاريفه من حقل لآخر بحسب العلوم التي يوظّف داخلها وفق قوامها المنهجي من منطق وبلاغة وفلسفة، والتباسه ببعض المصطلحات القريبة منه، التي توهم أحيانا بالترادف.

وقد اعتبر القدماء وبعض المحدثين الحجاج مرادفاً للجدل، وهذا من شأنه أن يضيّق مجال الحجاج ويغرقه في الجدل ؛ من حيث هو صناعة منطقية، ومن حيث أنه في الأصول وعلم الكلام: " معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يُتوصّل بها إلى حفظ رأي وهدمه ؛ سواء كان ذلك الرأي في الفقه أو غيره ".[1]

ولكن الحجاج أوسع من الجدل، فكل جدل حجاج، وليس كل حجاج جدلاً، فالجدل والخطابة " قوّتان لإنتاج الحجج ".[2]

ويمكن القول بأن هناك نوعين من الحجاج: جدلي، وخطابي، ومدار الحجاج الجدلي على مناقشة الآراء مناقشةً نظريةً محضةً لغاية التأثير العقلي المجرّد، وتمثّله في التراث العربي "مناظرات علم الكلام".

وأما الحجاج الخطابي فهو حجاج موجّه إلى جمهور ذي أوضاع خاصة، في مقامات خاصة، والحجاج ههنا ليس لغاية التأثير النظري العقلي، وإنما يتعداه إلى التأثير العاطفي وإلى إثارة المشاعر والانفعالات، ولو كان ذلك بمخالطته وخداعه وإيهامه بصحة الواقع.[3]

---

١ – المقدمة،ابن خلدون،دار الكتاب العربي، بيروت،ص٤٥٧.

٢ – الخطابة، أرسطو، تعريب عبد الرحمن بدوي، دار الشؤون الثقافية العامة وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٦م، المقالة:١ الفصل:٢، ص ١٣٥٦أ.

٣ – الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية ،عبدالله صولة، دار الفارابي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م، ص ١٧–١٨.

وإذا كان الحجاج بمعناه الجدلي ضيق الأُفُق، قاصراً عن الإلمام بدراسة أساليب الحجاج، لا يفي بموضوع الدراسة، كما أن الحجاج بمفهومه الخطابي يقوم على المغالطة وتحسين القبيح وتقبيح الحسن ؛ فإن هذا كله لا يتوافق مع ما تصبو إليه الدراسة؛ لذلك ستسلك الدراسة في مفهوم الحجاج سبيلاً ثالثة، يجعل الحجاج مستقلاً عن الجدل، بعيداً عن تهمة الدِّعاية والاستمالة والمغالطة اللائطة بالجدل في أصل نشأته ، في كنف الخطابة.[1]

تنطلق هذه الدراسة من غاية الحجاج التي تهدف إلى إذعان العقول لما يطرح إليها من آراء، أو أن تزيد في درجة ذلك الإذعان ؛ لتقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب إنجازه أو الإمساك عنه.[2]

وإذا ما أتينا للتفريق بين الحجاج والمذهب الكلامي، فإننا نجد أن ابن المعتز، يقول في كتاب البديع: " وهو مذهب سماه عمرو الجاحظ المذهب الكلامي، وهذا باب ما أعلم أني وجدت في القرآن منه شيئا، وهو ينسب إلى التكلف ".[3]

وقد أخذ بعض البلاغيين على ابن المعتز نفي هذا الفن عن القرآن قال ابن أبي الأُصبُع: " وزعم – ابن المعتز أنه لا يوجد في الكتاب العزيز، وهو محشو منه ".[4]

وعرّفه الخطيب القزويني بقوله: " أن يورد المتكلم حجة لما يدّعيه على طريق أهل الكلام ".[5]

إذن المذهب الكلامي لون من ألوان الحجاج يراعي فيه المتكلم إقناع خصمه بالحجة والبرهان، وليس مرادفاً للحجاج ولا يقوم مقامه، كما أن الحجاج الخطابي عِرْقٌ ضارب في جذور البلاغة بخلاف مصطلح المذهب الكلامي.[6]

---

١ – ينظر: السابق، ص٢٠–٢١ ،.

٢ – ينظر: السابق، ص٢٧.

٣ – البديع، ابن المعتز، ص ١٤٧.

٤ – تحرير التحبير، ابن أبي الأصبع،ص١١٩.

٥ – الإيضاح، القزويني، ص٣٤١.

٦ – ينظر: الاحتجاج في القرآن الكريم، زينب الكردي، ص٢٢.

وقد يتوهّم بعضهم بترادف الاستدلال والحجاج، لكنّ الحجاج ليس" استدلالاً محضاً، بقدر ماهو خطاب ينشط في إطار وضعية تخاطبيّة معيّنة، تضم طرفاً مُحاوِراً وطرفاً مُحاوَراً "[1].

ونخلص مماسبق إلى ترشيح استخدام مصطلح الحجاج موضوعا لهذه الدراسة، وقد جعلتها في خطب أبي بكر ﷺ ، وذلك لما لحظته في أثناء قراءَتي لخطب أبي بكر ﷺ من أساليب حجاجية، ولأن ذلك غائب عن كثير من الدارسين، فلم أجد دراسة أو مقالاً كتب عن حجاج أبي بكر ﷺ.

والدراسة تحاول إبراز جانب من جوانب شخصية أبي بكر ﷺ، وهو جانب قوة بيانه، وإقناعه وشدّته في الحق، حيث يبدو للكثير من شخصية أبي بكر ﷺ جانب الرِّقة فحسب.

ولا يعني الحجاج حشد الحجج فحسب، وإنما يعني أيضاً جملة من الاختيارات الأخرى على مستوى المعجم، وصيغ الكلمات ،والتراكيب، وأنواع الصور، فاللفظ يحلّ مكاناً معيّنا ليقود المتلقّي إلى غاية ما، ويعتمد التركيب تركيباً دون آخر، ليقنع المتلقّي بأمر ذي علاقة وطيدة بالخطاب في كليته [2]، وهذا ما سوف تثبته هذه الدراسة لأبي بكر رضي الله عنه.

وسوف تبحث هذه الدراسة في أصول الحجاج التي اعتمد عليها أبو بكر ﷺ ليحتج لرأي، أو يدحض فكرة ، محاولاً إقناع المتلقي بما بسطه، أو حمْله على الإذعان لما يعرضه.

* * *

---

١ – الحجاج بين المنوال والمثال " نظرات في أدب الجاحظ وتفسير الطبري ". د. علي الشبعان، ص١٧.

٢ – ينظر: الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة ،"بنيته وأساليبه، أ.د. سامية الدريدي، عالم الكتب الحديث، ط١، ١٤٢٨هـ، ص٨٨ وما بعدها.

الحجاج في خطب أبي بكر رضي الله عنه "دراسة تطبيقية"

الخطبة الأولى:

لما توفي النبي صلى الله عليه وسلم وبلغ أبا بكر أن الأنصار قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعده ليولّوا الخلافة سعد بن عبادة، خشي الفتنة فأسرع إليهم ومعه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم أجمعين. فقام أبو بكر رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

" أيها الناس، نحن المهاجرون، أول الناس إسلاما، وأكرمهم أحسابا، وأوسطهم دارا، وأحسنهم وجوها، وأكثر الناس ولادة في العرب، وأمسّهم رحماً برسول الله ﷺ، أسلمنا قبلكم،وقُدِّمنا في القرآن الكريم عليكم، فقال تعالى﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ ﴾[1]

فنحن المهاجرون،وأنتم الأنصار، إخواننا في الدين وشركاؤنا في الفيء، وأنصارنا على العدو، آويتم وواسيتم، فجزاكم الله خيرا، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش، فلا تنفسوا على إخوانكم ما منحهم الله من فضله ".[2]

البدء مثير بناه أبو بكر رضي الله عنه على حذف أداة النداء "يا" ليفيد دلالة إلغاء ما يتوهم من فاصل بينه وبين من ناداه، مع إفادة أن مناداة من هو بمكان ،وهذا أدعى لاستمالة القلوب.

وقوله "نحن المهاجرون " عبّر بلفظة "نحن " ولم يقل "أنا من المهاجرين "إذ الحديث عن جماعة المهاجرين، وليس عن ذاته،ولو كان أبو بكر رضي الله عنه طالب ولاية لجاء حديثه بصيغة ضمير المتكلم المفرد، ولما أخذ بيد أبي عبيدة وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما وطلب من الأنصار مبايعة أحدهما .

---

١ – سورة التوبة، ١٠٠.

٢ - البيان والتبيين، ص٥٢٧.

ونلحظ اعتماد أبي بكر رضي الله عنه على صيغة التفضيل أداة حجاجية في نحو قوله: " أول الناس، وأكرمهم، وأوسطهم، وأحسنهم، وأكثر الناس، وأمسّهم ".

وتكرار هذه الصيغة وتنوع دلالتها يهدف إلى إبراز أحقية المهاجرين بالخلافة.

ونلحظ حسن اختيار تلك الصفات وتناسبها داخل سياقها؛ حيث تشكّل بمجموعها مؤهلات قيادة العالم أجمع. فهم " أول الناس إسلاما " فالتفضيل بالإسلام للأسبق؛ ولذا ناسب قوله "أول " لكلمة "إسلاما" إذ أسبقيتهم للإسلام مبادرة إلى الخير وإسراع للحق، مع ما فيه من الصبر على أذى القوم وتكذيبهم، وعدم الاستيحاش من قلة الناصر، قال تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[1].

وبينما ناسبت كلمة "أول" كلمة "إسلاماً"؛ فقد جاءت "أكرم" مع "أحساباً" فالأحساب توصف بالكرم، وجاء بهذه الصفة لاعتبار أثر قوة النسب والحسب عند العرب في أمر السيادة، وقد أكد كرم أنسابهم بقوله: " وأوسطهم دارا " والأوسط هنا: الأفضل، على حد قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[2]

ولما كان لحسن الهيئة أثره في السيادة قال: " وأحسنهم وجوها " والوجه يوصف بالحسن، فلا يصح أن يقول أوسطهم وجوها أو أكرمهم وجوها، ونحو ذلك فجاءت الصفة في محلّها، ونزلت موقعها اللائق بها.

ولما كانت كثرة العشيرة موطن قوة، ومرشّح سيادة وقيادة، قال: " وأكثر الناس ولادة في العرب" فاحتج بالكم كما احتج بالكيف.

ولما كان اصطفاء النبي ﷺ من قريش لأعظم ولاية استحقّ قرابته من بعده الخلافة والولاية فهم "أمسّ الناس رحما بالنبي ﷺ".

---

١ – سورة الحديد، الآية ١٠.

٢ – سورة البقرة، جزء من الآية ١٤٣.

وقد احتج أبو بكر رضي الله عنه بتقديم المهاجرين على الأنصار في القرآن الكريم، على أحقيتهم بالخلافة ؛ لأنهم الأفضل، فاستشهد بقوله تعالى:"والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار"[1]

وقد مهّد بتفضيل المهاجرين على الناس، لقضيته الرئيسية، وهي تفضيل المهاجرين على الأنصار ؛ إذ الأنصار هم المنافسون للمهاجرين على الولاية.

وقد استطاع أبو بكر رضي الله عنه احتواء المتلقي بإظهار فضل الأنصار، بقوله: " وأنتم الأنصار،إخواننا في الدين، وشركاؤنا في الفيء، وأنصارنا على العدو "

ولكن هذه الخصال يشترك فيها الأنصار مع المهاجرين،وليس لهم فيها فضل أو تقدم على المهاجرين ؛ ليستحقوا بذلك تقديمهم عليهم .

وقد امتدحهم أبو بكر رضي الله عنه وأشاد بفضلهم على المهاجرين بقوله: " آويتم وواسيتم ".

وقد انتقل أبو بكر رضي الله عنه من المقدمة الحجاجية إلى النتيجة بقوله: " فنحن الأمراء، وأنتم الوزراء " وهذه النتيجة هي المغزى والهدف من تلك الحجج والبراهين التي أوردها أبو بكر رضي الله عنه.

وقد قرّر أبو بكر رضي الله عنه النتيجة بقوله" لا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش " وأنهى خطبته بنصيحة حانية تتناسب مع مغزى الخطبة وموضوعها، فقال: " لا تنفسوا على إخوانكم ما منحهم الله من فضله ".

ويمكن إيجاز أهم سمات الخطبة الحجاجية فيما يأتي:

١. تكرار صيغة التفضيل ؛ مما أسهم في إزالة توهم اعتقاد الأنصار أحقيتهم بالخلافة.

---

١ – سورة التوبة، الآية ١٠٠.

٢. الاحتجاج بالاستشهاد بالآية القرآنية على تقدُّم المهاجرين بالفضل وأحقيتهم بالإمارة ؛ والحجة النقلية الخبرية إذا كانت من نص مقدّس ؛ مقدمة على غيرها من الحجج ؛ لأنها من الأخبار الصادقة المجزوم بصحتها، ولهذا قيل " إذا جاء النص بطل القياس "[١]

فالحجة القرآنية ترجّح على ما سواها من الحجج الأخرى. قال ابن رشيق: " وأوضح الكلام عندي ما قام عليه الدليل، وثبت فيه الشاهد من كتاب الله ".[٢]

٣. استيعاب الآخر واحتواؤه أداة من أدوات الحجاج في الخطبة، حيث ذكر فضائل الأنصار ومحاسنهم، مما كان له أثره في حسن إقناع الأنصار والتأثير فيهم.

٤. جاءت الخطبة في مقدمة حجاجية ونتيجة تمثل الحكم، متأثرة بألفاظ القرآن ومعانيه، ومقتبسة من آياته ، متأثرة بالبيان النبوي، فقول أبي بكر ﷺ: " آويتم وواسيتم " متأثرة بقوله ﷺ للأنصار : " ألا تقولون: أتيتنا طريداً فآويناك وأتيتنا خائفاً فأمنّاك ".[٣]

٥. كثرة الجمل الاسمية في الخطبة من شأنها أن تساعد في إخراج المعاني في قالب تقريري لإثبات الحجة وإقناع الخصم، فبينما لا تتجاوز الجمل الفعلية في الخطبة ست جمل؛ فقد بلغ عدد الجمل الاسمية أربع عشرة جملة.

٦. جاء ذكر المسند إليه وتقديمه لحاجة السياق إليه، وذلك في الجمل الآتية: " نحن المهاجرون، وأنتم الأنصار، نحن الأمراء وأنتم الوزراء " وهذا نوع آخر من توكيد الجمل، لإقرار المعنى وتثبيته.

---

١ – خاص الخاص، أبو منصور الثعالبي.، ص٧١.

٢ – العمدة، ج٢، ص٥٢.

٣ – مسند أحمد، رقم. ١١٥٤٧.

٧. غلبة الأسلوب الإخباري لما يقتضيه الإقناع ،وقد جاء الأسلوب الإنشائي في موضعين وهما قوله: " جزاكم الله خيراً " وقوله: " فلا تنفسوا على إخوانكم ما منحهم الله من فضله ".

٨. جاءت الحجة في الخطبة مقرونة بالعلّة، فقد علّل أبو بكر ﷺ تقديم المهاجرين في الخلافة بقوله: "نحن المهاجرون أول الناس إسلاماً " إلى قوله: " وقدِّمنا في القرآن الكريم قبلكم ".

٩ – ورود التنغيم الموسيقي الحيّ عبر أسلوب الجناس الناقص بين (آويتم – واسيتم) وبين (أمراء – وزراء) مما كان له أثره في دعم المعنى وتقريره في ذهن المتلقي.

الخطبة الثانية:

دخل أبو بكر رضي الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم،وهو مسجّى بثوب،فكشف عنه الثوب،وقال:

" بأبي أنت وأمي طبت حياً وطبت ميّتاً، وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء، فعظمتَ عن الصفة، وجللتَ عن البكاء، وخصصتَ حتى صرتَ مسلاة، وعممتَ حتى صرنا فيك سواء، ولو أنّ موتك كان اختياراً منك، لجُدنا لموتك بالنفوس، ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفدنا عليك ماء الشئون، فأما مالا نستطيع نفيه عنا، فكمدٌ وإدناف، يتخالفان ولا يبرحان، اللهم فأبلغه عنا السلام، اذكرنا يا محمد عند ربك، ولتكن من بالك، فلولا ما خلفت من السكينة لم نُقِم لما خلفت من الوحشة، اللهم أبلغ نبيّك عنا، واحفظه فينا.

ثم خرج أبو بكر ﷺ وهم في شديد غمراتهم وعظيم سكراتهم، فخطب خطبة قال فيها: " أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت، وإن الله قد تقدّم إليكم في أمره، فلا تدعوه جزعاً، وإن الله قد اختار لنبيّه ما عنده على ما عندكم، وقبضه إلى ثوابه وخلف فيكم كتابه، وسنّة نبيه، فمن أخذ

بهما عُرِف، ومن فرَّق بينهما أُنكِر (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط) " النساء: جزء من الآية ١٣٥" ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتننكم عن دينكم، فعاجلوه بالذي تعجزونه ولا تستنظروه فيلحق بكم ".[١]

وفي رواية: " ثم تلا هذه الآية : (وما محمدٌ إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفائن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين) ".[٢]

قوله: " وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء " مقدمة حجاجية أعقبها بقوله: " فعظمت عن الصفة وجلَلْتَ عن البكاء، وخصصت حتى صرت مسلاة، وعممت حتى صرنا فيك سواء "، فجاءت بمثابة النتيجة لما سبق ؛ فقد جاء في المقدمة ذكر انقطاع الوحي بموت النبي ﷺ لتكون النتيجة عظم المصاب عن الوصف وجلالته عن البكاء ؛ فذكر التعليل ليسوّغ فداحة الأمر، وعظم الخطب ،وقد حسن تقديم "فعظمت عن الصفة " على قوله " وجللت عن البكاء " ؛ لأن من يعظم عن الصفة ستكون المصيبة بموته أجلّ من أن يعبّر عنها البكاء.

وقابل بين كلمتي " خصصت " و " عممت " ليُصَوِّر حقيقة ذلك المصاب، إذ خصّ حتى أصبح لكل شخص سلوة له من كل مصاب،فكل مصاب عداه يصاب به أيٌّ مسلم فهو دونه، وعمّ حتى أصبح الناس في الفجيعة سواء، فلا فرق بين قريب منه أو بعيد، فكلهم مكلوم بموته ﷺ، ومفجوع لفقده، وقد أسهمت المقابلة هنا في تصوير عظم المصيبة، وفداحة الخطب، وبذلك تحقق ما يراد من الحجاج هنا.

وقوله: " ولو أنّ موتك كان اختياراً منك لجُدنا لموتك بالنفوس، ولولا أنك نهيت عن البكاء، لأنفدنا عليك ماء الشئون "

---

١ – زهر الآداب، ص٤٠.

٢ – السيرة، ابن هشام، ج ٢، ص ٦٥٦.

ونجد أنه أحسن التعليل في الجملتين السابقتين ؛ حينما اعتذرعن افتدائه بالروح بكون النبي ﷺ قد خُيِّر فاختار أن يلحق بالرفيق الأعلى، واعتذر عن إنفاد الدموع لكونه ﷺ نهى عن البكاء فأحسن التلطُّف في الوصول إلى مراده، وإنما دخل حسن التعليل في باب الحجاج لما فيه من التلطّف بإيراد العلّة ودقّة النظر.

وقد احتج أبو بكر ﷺ لتخفيف مصاب الناس بموت النبي ﷺ باختيار الله ذلك له. فالله جلَّ جلاله هو الذي اختار موته، وقد قبضه إلى رحمته وثوابه، وما عند الله خير له مما عند الناس، وترَكَ النبي ﷺ في الأُمة الكتاب والسنة، منهاجاً وحجةً لا يزيغ عنهما إلا هالك، ومن شأن هذه الحجج أن تمكِّن في النفوس قبول خبر موت النبي ﷺ.

وقوله: " من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت " قد ضرب أبو بكر ﷺ جذور الفتنة والانقسام بعد موت النبي ﷺ بقوة الاحتجاج المنطقي، وبهذه الحجة التأملية النظرية التي مفادها أن من له الحياة المطلقة هو الذي يستحق أن يُعبد، أما الذي من صفاته الموت والفناء، فإنه لا تنقطع عبادة الحيِّ القيوم بموته، والاحتجاج النظري هو أحد الأساليب البلاغية التي تحقق المعنى أو تقرّبه، حتى ولو كان غائباً بعيد التصوّر عن الحواس.[1]

وقد عدل عن قوله "من كان يعبد رسول الله " إلى قوله "من كان يعبد محمدا " فذكره باسمه تصريحا ببشريته ؛ وكأنه بذلك يقول إن محمدا بشر كغيره لا تصرف له العبادة، وهو يموت كما يموت البشر.

وقد أكّد أبوبكر ﷺ على أحقية الله بالعبادة لاتصافه بديمومة الحياة، فعلّق القلوب بالخالق الحي الذي لا يموت، فكما أنها لا تنقطع حياته جل وعلا ؛ فكذلك عبادته لا تنقطع بموت النبي ﷺ، وقد كرّر التوكيد هنا في إثبات ما يصبو إليه، من إثبات موت النبي ﷺ وإثبات الحياة المطلقة لله، وقابل بين الحياة والموت ؛ ليحصل تدبُّر الفرق بين الحالين،

---

١ – ينظر: الاحتجاج العقلي والمعنى البلاغي، ناصر السعيدي ،" رسالة ماجستير بجامعة أم القرى ". ص١٥٤.

واستشعار عظمة الله، وبذلك يتحقق ما يراد من الإقناع لتعميق الإيمان والتصديق بموت النبي ﷺ.

وقد استدل أبو بكر ﷺ على صحة دعواه بقوله تعالى: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم...) الآية، وهذه أعلى مراتب الإقناع اليقيني ؛ إذ النص القرآني يقع في النفس موقع القبول، ويُتَصَوَّر تَصَوُّر المشاهد.

وألفت هنا الانتباه إلى أن عبد القاهر يعظّم من شأن الأدلة النقلية والحجج الخبرية ؛ إذ هي من أصدق المعاني وألصقها بالحقائق، ولذلك جعلها على رأس قائمة المعاني العقلية.[1]

ولا يغضّ عبدالقاهر من شأن الاحتجاج المصنوع في المعاني التخييلية، فضروب التخييل أظهر أمراً في البعد عن الحقيقة، وهي ضرب من التزويق.[2]

وأخلص إلى أهم السمات الحجاجية للخطبة، ويمكن تلخيصها فيما يأتي:

١. استهلال الخطبة بالأسلوب الشرطي القائم على المقدمة والنتيجة.

٢. قامت الخطبة على إثبات موت النبي ﷺ والاحتجاج لذلك، وكان هذا هو موضوعها وهدفها، وقد قطع بالاستشهاد القرآني حجة كل معاند ومنكر، وهذا أعلى مراتب الإقناع اليقيني، فالأدلة النقلية المبنية على حجج خبرية تأتي على رأس المعاني العقلية.

٣. تكرار حسن التعليل معتمداً على " لولا ".

٤. المقابلة كما في قوله: " طبت حياً، وطبت ميتاً " وقوله: " وخصصت حتى صرت مسلاة، وعممت حتى صرنا فيك سواء " وقوله: " فمن أخذ بهما عُرِف ومن فرَّق بينهما أُنكِر ".

٥. اعتمدت الخطبة في إثبات الدعوى على الحجة التأملية النظرية.

---

١ – ينظر: الاحتجاج العقلي في القرآن الكريم، زينب الكردي، ص٢٠٥.

٢ – أسرار البلاغة، ص٢٧٥ وما بعدها.

الخطبة الثالثة:

نادى منادي أبي بكر رضي الله عنه من بعد الغد من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم: لِيُتم بعث أسامةّ: ألا لا يبقينّ أحد من جند أسامة الا خرج الى عسكره، وقام في الناس،فقال:

" يا أيها الناس إنما أنا مثلكم، وإني لا أدري، لعلكم ستكلفونني ما كان رسول الله ﷺ يُطيق. إن الله اصطفى محمداً على العالمين، وعصمه من الآفات، وإنما أنا متبع، ولست بمبتدع، فإن استقمت فتابعوني، وإن زغت فقوّموني، وإن رسول الله ﷺ قُبِض، وليس أحد من هذه الأمة يطلبه بمظلمة ضربة سوط فما دونها، ألا وإن لي شيطاناً يعتريني، فإذا غضبت فاجتنبوني، لا أؤثّر في أشعاركم وأبشاركم، ألا وإنكم تغدون وتروحون في أجل قد غُيِّبَ عنكم علمه، فإن استطعتم ألا يمضي هذا الأجل إلا وأنتم في عمل صالح فافعلوا، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله، فسابقوا في مهل آجالكم من قبل أن تسلمكم آجالكم إلى انقطاع الأعمال، فإنّ قوماً نسوا آجالهم، وجعلوا أعمالهم لغيرهم، فإياكم أن تكونوا أمثالهم، الجدّ الجدّ ،والوحا الوحا[1]،والنجاء النجاء[2]، فإن وراءكم طالباً حثيثاً، أجلاً مرُّهُ سريع، احذروا الموت واعتبروا بالآباء والأبناء والأخوان، ولا تغبطوا الأحياء إلا بما تغبطون به الأموات".[3]

احتج أبو بكر ﷺ لما يقع منه من تقصير أو ضعف في الولاية – مقارنة مع رسول الله ﷺ – بأمرين:

أولاً: أنه لا يتحمل فوق ما يتحمل الصحابة حوله، ولذلك قال: " إنما أنا مثلكم " أي لا أطيق إلا ما تطيقون وأعجز عما تعجزون، ولا أقدر على ما كان النبي ﷺ يقدر عليه، ولا أطيق ما كان يطيق.

---

١ – الوحاء: العجلة والإسراع.

٢ – النجاء: الإسراع.

٣ – تاريخ الطبري، ج٣، ص٢١١.

ثانياً: أن النبي ﷺ اتسم بصفتين، واختص بأمرين، ليس لأبي بكر ﷺ إليهما طريق أو سبيل، وهما: الاصطفاء والعصمة من الآفات.

وكما كانت هاتان السمتان حجة لأبي بكر ﷺ في عدم تحمل ما كان النبي ﷺ يتحمّل، فكذلك هما حجتان له في وجوب طاعته ﷺ، وقد أكّد ذلك بقوله: " وإنما أنا متبع، ولست بمبتدع "فمن كان متبعا لسنة المصطفى المعصوم وجبت طاعته، وحتى لا يتوهم بعضهم أن طاعته تجب على كل حال، وأنه لا يصدرعنه ﷺ إلا الصواب، فقد قال:" فإن استقمت فاتبعوني، وإن زغت فقوموني "

فقيّد وجوب طاعته باتباعه للسنة وسيره على المحجّة، ولم يدع لمحتجٍّ حجّة، ولا لمجادل مراوغة، فمن حاله الاتباع لا الابتداع، وقبول النصيحة، والرضوخ لها ،فما حجة من خالفه أو ناهضه ؟ وقد كان لهذا عظيم الأثر في اتباع الأمة له، وعدم ظهور الخلافات والمناهضات في عهده، بل اجتمعت الأمة عليه بعد أن ارتدت، وقويت شوكتها بعد أن ضعفت، واتحدت بعد أن تمزقت بنكبة الردّة ، وما ذلك بعد توفيق الله إلا لقوة أبي بكر ﷺ في قراراته وإقناعه وبيانه.

ولما كانت الأُمّة –إماما ورعية – في سفينة واحدة، فإن غرقت غرق من فيها جميعا، وإن نجت نجا من فيها جميعا ؛ حسن قوله: "وإن زغت فقوّموني " ولم يقل: "فلا تطيعوني " ؛ وهذا فيه مزيد حجاج لاحتوائه المتلقي، وكسبه القلوب، وإشراكه الرعية في المسئولية وتحمل الأمانة.

وقد أبان أبو بكر ﷺ عن حدّته، مبرزاً جانباً من جوانب الضّعف ؛ ممهداً لذلك بقوله: " وإن رسول الله ﷺ قُبِض، وليس أحدٌ من هذه الأمة يطلبه بمظلمة ضربة سوط فما دونها".

فعلّل ﷺ لحدّته، واحتج لشدّة غضبه بقوله: " ألا وإن لي شيطاناً يعتريني " وأكّد الجملة بمؤكّدين، ونصح الناس باجتنابه عند الغضب، حتى لا يؤثّر في أشعارهم أو أبشارهم، فيمسّهم بالأذى في حال استغراق اللحظة الحاضرة.

وقوله: " ألا وإنكم تغدون وتروحون في أجل قد غُيِّبَ عنكم علمه " مقدمة حجاجية لقوله: "فإن استطعتم ألا يمضي هذا الأجل إلا وأنتم في عمل صالح فافعلوا "، وقد أكّد تغييب علم الأجل بأكثر من مؤكد: ألا،وإن، والإخبار بالجملة الفعلية عن المسند إليه، وقد مع أن ذلك مما لا ينكره أحد؛لأن فعل الناس وحالهم حال من ينكر ذلك، فيعتقد أن أجله طويل، وأنه لن يموت غِرَّة، ثم رتّب على تغييب الأجل عنهم وجوب المبادرة إلى العمل الصالح، ومبادرة الموت بصالح العمل.

ويمكن تلخيص أهم سمات الخطبة الحجاجية فيما يأتي:

١. غلبة توكيد الأساليب على الخطبة، حيث بلغت اثني عشر أسلوباً مؤكّداً في الخطبة.

٢. التكرار اللفظي بُغية الحثّ والتحريض على العمل الصالح، وإظهار الاهتمام البالغ به، وذلك في نحو قوله: " الجِدّ الجِدّ، والوحا الوحا، والنّجاء النّجاء ".

٣. وللتكرار قيمته الحجاجية في بسط الموعظة، وتثبيت الحجة، ودعمها في ذهن المتلقي، فهو رافد مهم للحجج والبراهين التي يقدّمها المتكلم لما له من وقع في القلوب، إذ يسهم في إقناع المخاطب أو حمله على الإذعان.[١]

٤. تنوُّع أساليب الخطاب بين الخبر تارةً، والأمر والنهي تارةً أخرى، وبين الأُسلوب المُثْبَت تارةً، والمنفي تارةً أخرى، مما كان له الأثر في تثبيت الحجّة،وإقامة البرهان،وتثبيت الموعظة.

---

١ – ينظر: الاحتجاج العقلي في القرآن الكريم، زينب الكردي، ج٢، ص٤٣٣.

الخطبة الرابعة:

قام أبو بكر رضي الله عنه واعظا ومذكرا بفضل الاخلاص،فقال:

" إن الله عز وجل لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه، فأريدوا الله بأعمالكم، واعلموا أن ما أخلصتم لله من أعمالكم فطاعة أتيتموها، وسلف قدّمتوه، من أيام فانية لأخرى باقية، لحين فقركم وحاجتكم.

اعتبروا عباد الله بمن مات منكم، وتفكّروا فيمن كان قبلكم. أين كانوا أمس ؟ وأين هم اليوم ؟ أين الجبارون ؟ وأين الذين كان لهم ذكر القتال والغلبة في مواطن الحروب ؟ قد تضعضع بهم الدهر وصاروا رميما، قد تركت عليهم القالات الخبيثات، وإنما الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات، وأين الملوك الذين أثاروا الأرض وعمروها، قد بعدوا ونسي ذكرهم، وصاروا كلا شيء، ألا وإن الله قد أبقى عليهم التبعات، وقطع عنهم الشهوات، ومضوا والأعمال أعمالهم، والدنيا دنيا غيرهم، وبقينا خلفاً من بعدهم، فإن نحن اعتبرنا بهم نجونا، وإن اغتررنا كنا مثلهم.

أين الوضاء الحسنة وجوههم، المعجبون بشبابهم ؟ صاروا ترابا، وصار ما فرطوا فيه حسرة عليهم، أين الذين بنوا المدائن وحصّنوها بالحوائط وجعلوا فيها الأعاجيب ؟ قد تركوها لمن خلفهم، فتلك مساكنهم خاوية، وظلمة في ظلمات القبور، هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ؟ أين من تعرفون من أبنائكم وإخوانكم ؟ قد انتهت بهم آجالهم، فوردوا على ما قدّموا فحلّوا عليه، وأقاموا للشقوة وللسعادة فيما بعد الموت، ألا إن الله لا شريك له، ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيراً، ولا يصرف عنه سوءًا إلا بطاعته،واتباع أمره، واعلموا أنكم عبيد مدينون، وأن ما عنده لا يُدرك إلا بطاعته، واتباع أمره، أما وإنه لا خير بخير بعده النار، ولا شر بشر بعده الجنة ".[1]

---

١ – تاريخ الطبري، ج٢، ص٢٤٥.

قوله: " إن الله عز وجل لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه "مقدمة حجاجية، قدّم بها للأمر بإخلاص العمل لله، وقد جاءت في أسلوب الحصر الذي يحصر قبول العمل فيما خلص لله، وبنفي القبول عما سواه، فجاء الأسلوب مؤكّدا بـ " إنّ "، وبأسلوب الحصر، وبالإخبار عن المسند إليه بالجملة الفعلية المشتملة على ضميره لدفع ما قد يتوهّمه متوهم من انتفع العبد بعمله، إن خلا من الإخلاص، وهذا أحد شرطي قبول العمل الصالح.

ولما قدّم بتلك المقدمة الحجاجية ؛ ناسب ذلك، أمره بالاخلاص، فيكفي في الإقناع بوجوب الإخلاص ؛ أن العمل الصالح لا ينفع صاحبه بغير إخلاص، ولما أمر بالإخلاص حفّز إليه بامتداحه وإبراز ثماره، وذلك بقوله: " واعلموا أنما أخلفتم لله من أعمالكم فطاعة أتيتموها، وحظّ ظفرتم به، وضرائب أدّيتموها، وسلف قدّمتموه من أيام فانية لأخرى باقية، لحين فقركم وحاجتكم ".

ونلحظ هنا أنه لما نفى النفع عن العمل الصالح الذي لا يراد به وجه الله، وحصره فيما ابتغي به وجهه، وصف العمل الخالص لله بكونه طاعة أتي بها، وحظّ ظفر به فاعله، وواجب أدّي، وفرض قُدِّم، وأن ذلك كله قدِّم من أيام الفناء والزوال، لأيام البقاء والدوام، وفي ساعة الغنى لساعة الحاجة والفاقة، وبهذا يكون أبو بكر ﷺ قد حفّز وحث على الإخلاص، وأبرزه في أبهى صورة، وأحسن هيئة فتارة بأسلوب الحصر، وأخرى بوصفه لثمرات الإخلاص، وهو بذلك كله يحتجّ لوجوب الإخلاص في العمل.

وقد ذكّر أبوبكر ﷺ بوجوب الاستعداد للموت وصوّره عين اليقين من خلال أسئلته التي طرحها، وهي معلومة الجواب، وذلك في قوله: " أين كانوا أمس ؟ وأين هم اليوم ؟ أين الجبارون ؟ وأين الذين كان لهم ذكر القتال والغلبة في مواطن الحروب ؟

وقد أجاب على ذلك مصوّراً ما آل إليه هؤلاء بقوله: " قد تضعضع بهم الدهر، وصاروا رميماً، قد تركت عليهم القالات الخبيثات "[1].

وقوله: " إنما الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات " اقتباس من القرآن، وهذا أثر من آثار القرآن الكريم في خطب أبي بكر ﷺ.

والخطبة قائمة على إثارة الأسئلة والإجابة عليها ،استمرارا في الحجاج، وإقناع المستمع لايقاظ المتلقي من الغفلة، وتحفيزه للعمل لما بعد الموت، قال: " وأين الملوك الذين أثاروا الأرض وعمروها ؟ " ثم أجاب: " قد بعدوا ونُسي ذكرهم، وصاروا كلا شيء " فذكر مصير أهل الملك الذين كانت لهم القصور والدور، وكانوا أهل السيادة والرّيادة، فإذا آلوا إلى ما آلوا إليه، فمن سواهم أولى بذلك.

وقوله: " أثاروا الأرض وعمروها " اقتباس من قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ ﴾[2]، ثم حذّر من مغبّة الشهوات، فقال: " ألا وإن الله قد أبقى عليهم التبعات، وقطع عنهم الشهوات، ومضوا والأعمال ،عمالهم، والدنيا دنيا غيرهم ".

وقد أكّد الأسلوب بأربع مؤكدات: " ألا " و " إن "،وقد، والإخبار بالجملة الفعلية عن المسند إليه،وقد قام الأسلوب على التضاد، فقابل: " أبقى " بـ " قطع " و " التبعات " بـ " الشهوات "، و " عليهم " بـ " عنهم " وقد أسهمت هذه الأساليب البلاغية في رسم الحجة وإظهار المحجة ، لإبراز مغبّة اتباع الشهوات والملذات.

وقد جعل أبو بكر رضي الله عنه من إظهار حال الملوك بعد الموت مقدمة حجاجية، يصل بها إلى مراده الذي يخّصه بقوله: " وبقينا خلفاً من بعدهم، فإن نحن اعتبرنا بهم نجونا، وإن اغتررنا كنا مثلهم " فالنتيجة المرادة، هي الاعتبار والاتعاظ بحال هؤلاء الملوك، والتحذير من مغبّة الاغترار، وقد رتّب على الاعتبار النجاة، وعلى الاغترار

---

١ – القول في الخير، والقال والقيل والقالة في الشر.

٢ – سورة الروم، الآية: ٩.

الهلكة، ولا نتيجة محتملة غير هاتين، وعلى هذا فقد أحسن السّبْر والتقسيم، وهو من أدوات الحجاج ووسائله. وواصل أبو بكر ﷺ الأسئلة مقرونة بالأجوبة على النسق السابق بقوله: " أين الوِضَاء الحسنة وجوههم، المعجبون بشبابهم ؟ " ثم أجاب " صاروا تراباً، وصار ما فرّطوا فيه حسرة عليهم " وقد ناسب ذكر مآل حِسان الوجوه قوله: "صاروا تراباً " لما في ذلك من إبراز انمحاء المحاسن وذهاب رونق الشباب وطراوته ،بينما ناسب مع الملوك قوله: " قد بعدوا ونسي ذكرهم " ؛ إذ الملوك لهم الجاه والصّيت والمنزلة بين الناس، فناسب قوله: " نُسِيَ ذِكْرُهُم " أي هلك ذلك الذكر، وانطمس صيتهم ونُسوا، ولم يعد لهم ذكر ولا منزلة بين الناس. وانتهت بالأسئلة إلى الأقربين وحالهم الذي يعرفونه قبل الموت وبعده، فقال:"أين من تعرفون من أبنائكم وإخوانكم؟"ثم أجاب:"قد انتهت بهم آجالهم،فوردوا على ما قدّموا، فحلّوا عليه، وأقاموا للشقوة وللسعادة من بعد الموت ".

وبهذا نلحظ الاستقصاء في بيان المصير، فذكّرهم بحال من قبلهم، ثم أعقب ذلك بحال الملوك، ثم حسان الوجوه، ثم مصير الأقارب من أبناء وإخوان، فمن أُعْجِبَ بمُلْكِه فالملوك عبرةً له، ومن اغترّ بشبابه فمصير الوضاء الحسنة وجوههم عِظةً له، ومن لم يكن كذلك فله في أقاربه و أحبابه الذين تلقّطتهم المنايا عظة وعبرة، و بهذا يكون قد استقصى أصول الاغترار بالدنيا عن الآخرة، وهي: الملك والحياة، والشباب، والمال.

ولما ذكر مآل الأبناء والإخوان، قال:"وأقاموا للشقوة وللسعادة "ولم يقل:"قد تركت عليهم الفالات..كما قاله في مآل الجبّارين، ولا قال:"أبقى عليهم التبعات "كما قاله في حق الملوك،ولا قال:"وصار ما فرطوا فيه حسرة عليهم "كما قاله مع المغْترّين بشبابهم،وذلك من التلطف مع المستمعين،إذ الحكم على أقاربهم بالشقوة أو الحسرة، أو نحو ذلك مما سبق في حق غيرهم فيه حرج لمشاعر أقاربهم،ثم إن

أقاربهم لم يوصفوا هنا بما يترتب عليه التبعة والإثم، بخلاف من اغْترّ و أُعْجب بشبابه، أو كان جبّاراً،أو ولي الملك الذي لا يكاد يسلم من تبعاته أحد من الملوك.

وقد قدّم أبو بكر رضي الله عنه في ختام خطبته للحث على الطاعة واتباع أمر الله بقوله: "ألا إن الله لا شريك له، ليس بينه وبين أحدٍ من خلقه سببٌ يعطيه به خيراً، ولا يصرف عنه به سوءاً إلا بطاعته واتباع أمره، واعلموا أنكم عبيد مدينون، وأنّ ما عنده لا يُدرك إلا بطاعته"، فقد برهن على أهمية العمل الصالح، وعلّل لذلك بكون الله المستحق للعبادة دون سواه،وليس بينه وبين عباده نسب ولا سبب، إلا العمل الصالح، وكون الخلق عباد الله مجزيين بما عملوا، وكون الله لا يُدرك ما عنده إلا بطاعته ؛ إذاً العمل الصالح هوالمهمة والمسئولية التي يحاسب على التقصير فيها العبد،كما أنه السبب الوحيد الذي يصل به العبد إلى ما عند الله من الرحمة والفضل.

وختم الصديق خطبته بقوله:"أما وإنه لا خير بخير بعده النار، و لا شر بشر بعده الجنة " فبنى الأسلوب على التوكيد ب:"أما" و"إن"،ولا النافية للجنس، والطباق بين "الجنة " و"النار"، وقد أبرز بذلك النتيجة البشعة المترتبة على العمل السيء،والنتيجة الحسنة المترتبة على العمل الصالح، فلا لذّة للذّة تعقبها النار، ولا ألم لألم تعقبه الجنة.

ويمكن تلخيص أهم سمات الخطبة فيما يأتي:

١) توكيد أساليب الخطبة، حيث بلغت الأساليب المؤكدة ثمانية مواضع، ولكنها لم تكن الغالبة على الخطبة.

٢) الاتكاء في الحجاج على أسلوب الاستفهام الذي تكرر ثماني مرات، متوسلا به إلى إإقناع المستمع بضرورة الاستعداد للمصير المحتوم والأجل المكتوب، حيث اعتمد على إثارة السؤال المتبوع بالإجابة، ليصل بذلك إلى تقرير الحقيقة المرادة.

٣)أسلوب الحصر يمثّل مقدمة الخطبة، وقد رتّب على ذلك النتيجة التي أراد الوصول إليها.

٤) الطباق في الخطبة، جاء ذلك في قوله "أيام فانية لأخرى باقية "و"أين كانوا أمس؟ وأين هم اليوم ؟"وقوله:"قد أبقى عليهم التبعات،و قطع عنهم الشهوات،"وقوله:"اعتبرنا_ اغتررنا " وقوله:"الشقوة – السعادة " وقوله "خيراً – سوءاً"وقوله"خير – شر" وقوله "الجنة _النار".

٥)غلبة المعاني القرآنية على الخطبة كما في قوله:"وإنما الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات،ينظر في ذلك في قوله تعالى:﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ... ﴾[١]

وقوله:"الذين أثاروا الأرض وعمروها "ينظر في ذلك إلى قوله تعالى:﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ... ﴾[٢]

وقوله:"فتلك مساكنهم خاوية " ينظر في ذلك إلى قوله تعالى:﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[٣]

وقوله:"هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا" ينظر في ذلك إلى قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ۖ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾[٤]

٦)تكرر أسلوب الشرط في موضعين متقابلين، وهو قوله رضي الله عنه: "إن نحن اعتبرنا بهم نجونا،وإن اغتررنا كنا مثلهم" .

---

١ – سورة النور، جزء من الآية ٢٦.

٢ – سورة النور، الآية ٩.

٣ –سورة النمل،الآية ٥٢.

٤ – سورة طه، الآية: ٩٨.

الخطبة الخامسة

قام أبو بكر رضي الله عنه مزهدا في الدنيا مرغبا في الآخرة، فقال:

" إن أشقى الناس في الدنيا و الآخرة الملوك، فرفع الناس رؤوسهم، فقال: مالكم يا معشر الناس ؟ إنكم لطعانون عجلون، إن من الملوك من إذا ملك زهّده الله فيما في يده، ورغّبه فيما في يدي غيره، وانتقصه شطر أجله، وأشرب قلبه الإشفاق، فهو يحسد على القليل، ويتسخط الكثير، ويسأم الرخاء، وتنقطع عنه لذة البهاء، لا يستعمل العبرة، ولا يسكن إلى الثقة، فهو كالدرهم القسيّ[1] والسراب الخادع، جذل الظاهر حزين الباطن، فإذا وجبت نفسه ونضب عمره وضحا ظله ؛ حاسبه الله فأشدّ حسابه وأقلّ عفوه، ألا إن الفقراء هم المرحومون، وخير الملوك من آمن بالله، وحكم بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وإنكم اليوم على خلافة نبوة ومفرق محجة، وسترون بعدي ملكا عضوضا، وأمة شعاعا ، ودما مفاحًا [2]؛ فإن كانت للباطل نزوة، ولأهل الحق جولة يعفولها الأثر وتموت السنة، فالزموا المساجد،واستشيروا القرآن، والزموا الجماعة، وليكن الإبرام بعد التشاور، والصفقة بعد طول التناظر، أي بلاد خرشنة [3]، إن الله سيفتح عليكم أقصاها كما فتح أدناها" [4].

قدّم أبو بكر رضي الله عنه هنا النتيجة الحجاجية وأخّر المقدمة على خلاف عادته في الخطب السابقة فقال:" إن أشقى الناس في الدنيا والآخرة الملوك"لما في ذلك من إثارة السامع ولفت انتباهه، ثم علّل لذلك لمّا شَعُر بإنكار الناس ، فقال: "إنّ من الملوك من إذا ملك زهّده الله فيما في يده، ورغّبه فيما في يدي غيره...." حتى قال" حاسبه الله ، فأشدّ حسابه وأقلّ عفوه " فقد علّل لسبب شقاوة بعض الملوك بعدة علل، فهو

---

١ – القسي:الزائف

٢ – مفاحا: من أفاحه أي أراقه.

٣ – خرشنة: بلد بالروم.

٤)البيان والتبيين ، ص ٢٣٤.

مستقلّ لما في يده ، طامع فيما في أيدي الناس، وبذلك فقَدَ أعظم كنز، وهو القناعة – الغنى الحقيقي لعبد– وجعل انتقاص الأجل سببا آخر في شقاوته وذلك أنه يصاب بأمراض القلق والأرق ؛ مما يتسبب في موته مبكرا، وبذلك يخسر الدنيا، ويخسر جزءًا من عمره فيما لا ينفعه في آخرته، وقد علّل انتقاص الأجل بالإشفاق القلبي، وحسد غيره على القليل وتسخطه ؛مع إنعام الله عليهما لا يحصى من النعم. وأعجب من ذلك أنه يسأم حالة الرخاء، ولا يجد لذة ما يتنعم فيه، وهو مع ذلك كله لا يعتبر رغم كثرة العظات، ولا يعتبر مع غزارة العبر، ولا يركن إلى ثقة ينتفع به.

وقد استعان أبو بكر رضي الله عنه بالتشبيه في تصوير بوار هؤلاء الملوك، واحتج بهذه الصورة في إظهار شقاوتهم فقال" فهو كالدرهم القسي، والسراب الخادع" فشبّه حال من شقي من الملوك بحالة الدرهم الزائف الذي يُظن في ظاهره أنّ له قيمة، وهو في باطنه لا قيمة له، وكالسراب الخادع الذي يظن من يراه أنه ماء، فإذا جاءه لم يجده شيئا.

وقد أكّد هذه الصورة بالطباق في قوله " جذل الظاهر، حزين الباطن " وبهذا أظهر شقاوة هؤلاء وإن توهّم الرائي سعادتهم ، واغتر بمظهرهم،ثم صوّر أبو بكر رضي الله عنه نهاية هؤلاء الأشقياء، وخاتمة هؤلاء المفسدين بقوله: (فإذا وجبت نفسه ونضب عمره وضحا ظله[1]، حاسبه الله، فأشدّ حسابه، وأقلّ عفوه، فصوّر نهايته بأسلوب المجاز، إذ يقال وجبت الشمس، أي:غابت، ووجبت العين: غارت ، وقد استعمله هنا في موت الإنسان لكون ذلك بداية غيابه عن الدنيا، واختفائه منها، وذلك على سبيل الاستعارة المكنية ، وكذا قوله (ونضب عمره) ؛ إذ يقال نضب الماء إذا غار في الأرض وذهب، واستعمل هنا في الموت ؛ إذ الموت ذهاب للعمر وانطفاء للشمعة، وكذلك قوله:(وضحا ظله) فلم يعد له ظل، لاختفاء جسده عن الشمس، وتغييب بدنه في التراب.

---

١ – ضحا ظله: ذهب ظله، كناية عن موته وزواله.

ثم طابق بين (أشدّ حسابه) و(وأقلّ عفوه) فاستعمل أشد مع الحساب ؛ لمناسبتها له في إبراز شقاوة القوم،واستعمل أقلّ مع العفو لحاجة العبد للعفو في تلك الحال ولو كان قليلا، وبهذا اكتمل المشهد مصوّرا شقاوة القوم محتجا لذلك بما أوضحنا.

وقابل حال هؤلاء بحال الفقراء بقوله (ألا إن الفقراء هم المرحومون). فأكّد رحمة الله للفقراء بأربع مؤكّدات ؛ لما رأى من إنكار الناس، وتوهّم سعادة الملوك وشقاوة الفقراء، يمثّل ذلك قوله ((إنكم لطعّانون عجلون)) وبهذا يصل أبو بكر رضي الله عنه إلى تفضيل حال الفقراء في الدنيا والآخرة على الملوك عامة، وحتى لا يظن الناس شقاوة كل ملك، وخسارة كل وال، قال: (وخير الملوك من آمن بالله وحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم) فهؤلاء ليسوا بأشقياء ما داموا يحكمون بالقرآن والسنة، وقد جاء بالأسلوب غير مؤكّد ؛ لعدم الحاجة إلى توكيده، فلم يقابل ذلك بالإنكار، كما وقع عند قوله:((إن أشقى الناس في الدنيا والآخرة الملوك).

ولما قابل بين حالين متباينين للملوك، فجعل بعضهم " أشقى "، والآخر "خير" ؛ ناسب ذلك أن ينقله إلى الواقع مذكّرا بنعمة الله عليهم ،فقال" و إنكم اليوم على خلافة نبوة ومفرق محجة "،وقد سمّاها خلافة وإن كانت متضمنة لمُلْك، ولم يسمّها مُلْكا ؛ لقيام الخلافة في التولية على اختيار أهل العقد والحلّ، بينما المُلْك يأتي وراثة يرثه الابن عن أبيه، وإن لم يكن أهلا للولاية ،ووصف تلك الخلافة بأنها خلافة نبوة فيها اتّباع آثار النبي صلى الله عليه وسلم والعمل على تطبيق سنته واقتفاء أثره ، وهي واضحة على المحجة البيضاء ليس فيها زيغ ولا شُبَه.

وقابل حال الخلافة بالملك المتضمن للعنف والظلم بقوله:(وسترون بعدي ملكا عضوضا، وأمة شعاشا، ودما مفاحا) فوصف الملك بالعضوض الذي يظلم عباد الله، ويتولاهم بالعسف والجور، فإذا كان الأمر في الملك كذلك تفرّقت الأمة وتمزّقت، وسفكت الدماء، وقُتل الأبرياء.

ثم أرشد أبوبكر رضي الله عنه الناس إلى ما ينبغي عليهم عند نزوة الباطل ووثبته بقوله ((فالزموا المساجد واستشيروا القران والزموا الجماعة، وليكن الإبرام بعد التشاور والصفقة بعد طول التناظر) وقد كنى عن الارتباط بالعبادة في المساجد بالملازمة ' وكنى عن الرجوع إلى القرآن عند الأحداث ومعرفة حكم الله في ذلك ؛ كنى عنه بالاستشارة. ثم ختم الخطبة بالبشارة ((أي بلاد بلاد خَرشنة.إن الله سيفتح عليكم أقصاها كما فتح أدناها))

أهم سمات الخطبة الحجاجية:

١- توكيد الأساليب حيث جاءت ست جمل من الخطبة مؤكدة.

٢- كان للمقابلة أثرها الحجاجي في إقناع المستمع، من أمثلته (الدنيا –الآخرة) (زهّده – رغّبه) (فيما عنده – فيما في يدي غيره) (القليل – الكثير) (جذل الظاهر – حزين الباطن) (نزوة الباطل – جولة الحق) (وأقصاها – أدناها)

٣- جاء التمثيل في موضعين وهما " فهو كالدرهم القسي أي: الزائف، والسراب الخادع "وذلك في تمثيل القسم الأول من الملوك الذين هم أشقى الناس، حيث شبّه حالهم في قبح باطنهم وحسن ظاهرهم بالدرهم الزائف الذي يرى في ظاهره جميلا له قيمة، وحقيقته أنه لا ينفع صاحبه، وكذا السراب الذي يظن من يراه أنه ماء يروي وارده، فإذا به سراب لا يشبع ولا يروي، كما جاءت الاستعارة في قوله فإذا وجبت نفسه،ونضب عمره،وضحا ظله".

٤- الاستعارة والتمثيل لهما الأثر البالغ في الإيضاح والتبيان مما يمنحهما قيمة حجاجية، إذ الإيضاح مقوّم أساسي في الإقناع والتأثير، وهذه الأساليب البلاغية خاصة التمثيلية بما تثيره من استحسان وانفعال لدى المتلقي تخدم الأغراض الحجاجية، إذ العاطفة مدخل من مداخل الإقناع[1]والاستعارة أقوى من الحقيقة

---

١) ينظر: الحجاج مفهومه ومجالاته إعداد د.حافظ علوي، جـ ٤، ص ١١٣.

في تحريك همة المخاطب إلى الاقتناع ، فهي صورة من صور البراهين الخطابية،وهي من الوسائل اللغوية التي يستعملها المتكلم للوصول إلى أهدافه الحجاجية[1]فالاستعارة تؤدي وظيفة حجاجية ولا تخاطب العقل فحسب، بل تخاطب النفس والعقل معا ، ولذا قدرتها على التأثير تعود إلى تأثيرها في عقل المخاطب ونفسيته معا[2].

الخطبة السادسة:

وصل مال من البحرين إلى أبي بكر رضي الله عنه، فساوى فيه بين الناس، فغضب الأنصار وقالوا له: فُضِّلنا، فقال أبو بكر رضي الله عنه: صدقتم، إن أردتم أن أفضّلكم صار ما عملتموه للدنيا وإن صبرتم كان ذلك لله عز وجل، فقالوا: والله ما عملنا إلا لله تعالى، فانصرفوا، فارتقى أبو بكر رضي الله عنه المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: "يا معشر الأنصار إن شئتم أن تقولوا إنا آويناكم في ظلالنا، وشاطرناكم في أموالنا، ونصرناكم بأنفسنا قلتم، وإن لكم من الفضل مالا يحصيه العدد، وإن طال به الأمد،فنحن وأنتم كما قال طفيل الغنوي:

جزى الله عنا جعفرا حين أزلقت ... بنا نعلنا في الواطئين فزلّت

أبوا أن يملّونا ولو أنّ أمّنا ... تلاقي الذي يلقون منا لملّتِ

هم أسكنونا في ظلال بيوتهم ... ظلال بيوت أدفأت وأظلّتِ[3]

---

١) ينظر: نحو مقاربة حجاجية للاستعارة، أبوبكر الغزاوي، مجله المناظرة، المغرب، السنة الثانية ، العدد الرابع، شوال ١٤١١ ص ٨١.

٢)ينظر: الحجاج مفهومه ومجالاته إعداد د.حافظ علوي جـ ٣ صـ ١٥٩. ١٦٠.

٣ – زهر الآداب، ج١،ص٣٩.

بدأ أبو بكر رضي الله عنه خطبته بالاستدراج، وهو التوصل إلى الغرض من المخاطب والملاطفة له في بلوغ المقصود من حيث لا يشعر[1]، فإنه لما قال الأنصار – وقد غضبوا– فُضّلنا، قال: صدقتم، ثم خيّرهم بين إرادة الدنيا أو الآخرة " إن أردتم أن أفضّلكم صار ما عملتموه للدنيا وإن صبرتم كان ذلك لله عز وجل "وبهذا أقنع أبو بكر رضي الله عنه الأنصار، وانصرفوا وهم يقولون: والله ما عملنا إلا لله تعالى. فأبو بكر رضي الله عنه جعل أفضلية الأنصار، وسابقة أعمارهم نافعة لهم في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَٱلْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف ٣٥] ولم يأخذ بها في لعاعة الدنيا ؛ لأنّ ما عند الله خير وأبقى.

ولما أراد بيان فضل الأنصار على مشهد من الناس خطب،وأبان أنهم آووا المهاجرين،وشاطروهم أموالهم، وفدوهم بأنفسهم وأرواحهم، وقد جعل ذلك حوارا على ألسنتهم، وأجاب عنه بقوله: "وإن لكم من الفضل مالا يحصيه العدد وإن طال به المدد " واستشهد لما ذهب إليه من وصف حال الأنصار مع حال المهاجرين بأبيات طفيل الغنوي، والأبيات شملت الدعاء والثناء والمبالغة في المدح، حتى لم يعد للأنصار بعد ذلك حجة، ولم يبق في قلوبهم سخيمة، ولا أدلّ على قوة الحجاج عند أبي بكر رضي الله عنه، وقدرته على احتواء الخصم من هذه الخطبة.

أهم سمات الخطبة الحجاجية:

١. الاستدراج أسلوب من أساليب الحجاج، نجده في قول أبي بكر رضي الله عنه لما قال له الأنصار: " وقد فُضِّلنا " قال: "صدقتم" ثم استرسل، فقال:"إن أردتم أن أُفضّلكم صار ما عملتموه للدنيا وإن صبرتم كان ذلك لله". وهنا اضطروا إلى قولهم:"والله ما عملنا إلا لله تعالى "، وانصرفوا.

---

١ – المثل السائر، ج١، ص٦٤.

وتكمن القيمة الحجاجية للاستدراج في أنه يعرض القضايا بأسلوب ليّن مؤثر، يفتح القلوب، ويشرح الصدور، ويحمل الآخرين على الاستماع والاستجابة، ويكبح نفور الخصم ببناء الكلام على مسلمات متفق عليها ؛ لتكون أسرع إلى القبول والإذعان[1].

٢. السبر والتقسيم ؛ إذ العمل إما يراد به الله والدار الآخرة أو أن يراد به الدنيا وما فيها، فقوله:إ"ن ارتم أن أُفضِلكم صار ما عملتموه للدنيا، وإن صبرتم كان ذلك لله". فطلب الدنيا بالعمل الصالح بوار وخسارة، فلم يبق إلا طلبه لله لينال الأجر الأخروي؛ ولذلك سلّم الأنصار بذلك واقتنعوا.

٣. بناء الخطبة على الحوار بين أبي بكر والأنصار،وافتراضه الحجة لخصمه، ثم رده عليه، حتى وصل إلى إقناع الخصم وإذعانه.

٤. حسن الاستدلال بالشعر، مما أذهب ما قد وقع في نفوس الأنصار من غضب .

الخطبة السابعة:

لما أراد أبو بكر رضي الله أن يجهز الجنود الى الشام، دعا عمر وعثمان وعليا وطلحة والزبير وعبدالرحمن بن عوف ووجوه المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم، فدخلوا عليه، فقال:

(إن الله تبارك وتعالى لا تحصى نعمه، ولا تبلغ جزاءها الأعمال، فله الحمد كثيراً على ما اصطنع عندكم، فقد جَمَع كلمتكم، وأصلح ذات بينكم، وهداكم إلى الإسلام، ونفى عنكم الشيطان، فليس يطمع أن تشركوا بالله، ولا أن تتخذوا إلهاً غيره، فالعرب اليوم بنو أم وأب، وقد أردت أن أستنفرهم إلى جهاد الروم بالشام، ليؤيد الله المسلمين، ويجعل كلمته العليا، مع أن للمسلمين في ذلك الحظ الأوفر، فمن هلك منهم هلك شهيداً، وما عند الله خيرٌ للأبرار، ومن عاش منهم عاش مدافعاً عن الدين، مستوجباً على الله عز وجل ثواب المجاهدين، هذا رأيي الذي رأيت فليُشر عليَّ امرؤ بمبلغ رأيه)[2]

---

١ ينظر الاحتجاج العقلي في القرآن الكريم ، زينب الكردي، ج١، ص ١٨٧.

٢ – جمهرة خطب العرب ، أحمد زكي صفوت، ج١، ص١٩٠.

بدأت الخطبة بإجمال أُعقب بتفصيل، وهذا أسلوب منطقي، حيث أجمل فقال: (إن الله تبارك وتعالى لا تحصى نعمه، ولا تبلغ جزاءها الأعمال) وقد بنى الفعل ((تُحْصَى)) للمجهول، وعدَل عن المعلوم لما فيه من الإيجاز، ودلالة عجز كل شخص كائناً من كان عن إحصاء نعم الله، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

وقد انتقل أبو بكر ﷺ من إثبات العجز عن إحصاء النعمة، إلى إثبات عجز الأعمال عن جزائها، فلا يبلغ أحد بعمله شكر نعم الله مهما عمل وبذل واجتهد، فالعمل الذي يبلغ جزاء نعم الله فوق قدرة المخلوقين ، ولذلك لم يؤاخذوا بما لم يستطيعوا، وإنما كُلِّفوا ببذل الطاقة والسعة.

وقد حسن هنا تقديم ((جزاءها))على ((الأعمال)) لما فيه من التناسب مع تقديم ((تحصى)) على ((نعمه)) إذ الحديث هنا منصبّ على إحصاء النعمة وجزائها بالعمل، فحسن تقديم ((الإحصاء)) و ((الجزاء)) لاهتمام السياق بهما، وهذا التقديم رافد من روافد الإقناع، ووسيلة فنية من وسائل الاستمالة والتأثير.

وقد انتقل أبو بكر ﷺ من إجمال النعمة إلى تفصيلها ببراعة تخلّص تتمثّل في قوله: (فله الحمد كثيراً على ما اصطنع عندكم). وهنا انتقل إلى تذكيرهم بنعم الله تفصيلاً، فقال: (فقد جمع كلمتكم، وأصلح ذات بينكم، وهداكم إلى الإسلام، ونفى عنكم الشيطان، فليس يطمع أ ن تشركوا بالله، ولا أن تتخذوا إلهاً غيره) وما ذكره أبو بكر ﷺ هنا من نعم الله على وجه التفصيل لم يأتِ به شاملاً للنّعم، مستقصياً للآلاء ؛ وإنما ذكر هنا ما يناسب مقام استنهاض العزائم إلى القتال، وتحفيز الهمم إلى الجهاد ؛ إذ جمع الكلمة،وإصلاح ذات البين، والهداية للإسلام، والتوفيق للإيمان، مع الحفظ من كيد الشيطان وشركه، كل ذلك من دواعي النصر وهزيمة الأعداء، وبانتقاء هذه النعم على

---

١ – سورة النحل، الآية ١٨.

سبيل الخصوص بنى أبو بكر ﷺ مقدمة حجاجية، ليقنع بها المتلقين، ويحملهم على الإذعان للنفور للجهاد وفتح الشام.

وقد انتقل بالالتفات من ضمير المخاطب إلى ضمير الغائب واتخذ من قوله: (فالعرب بنو أم وأب) طريقاً وسبيلاً لتحريك مشاعرهم، وقد ناسب هنا ذكره للعرب دون المسلمين ؛ لأنه قد سبق في أول الخطبة بيان فضل الله عليهم بالإسلام. فاتخذ هنا وسيلة أخرى لتحريكهم للقتال بانتخائهم بالعروبة، فليس كل الناس يمكن التأثير فيهم من خلال تحريك المشاعر الدينية، وإنما يحتاج بعضهم إلى هزّ مشاعره من خلال تذكيره بنسبه وعرقه، والمقام هنا ناسب ذكرالعرب ؛ لأن القتال لم يكن مع العرب كما كان في حروب سابقة، وإنما هو مع الروم. فناسب مقابلة ذكر الروم بذكر العرب ، ليجتمع أكبر عدد من العرب ضد الروم ، وينطلق أعظم جيش عربي إسلامي لفتح بلاد الروم.

وكأن أبا بكر ﷺ استشعر سؤال سائل يقول: لماذا تستنفر العرب على الروم، وتلقي بهم في لهيب الحرب ونار القتال ؟

هنا قال أبو بكر ﷺ: (ليؤيد الله المسلمين، ويجعل كلمته العليا، مع أن للمسلمين في ذلك الحظ الأوفر، فمن هلك منهم هلك شهيداً، وما عند الله خيرٌ للأبرار، ومن عاش منهم عاش مدافعاً عن الدين، مستوجباً على الله عز وجل ثواب المجاهدين).

فقد أبان أبو بكر عن مقصد شريف، وغرض نبيل، ونية حسنة، وهمة عالية، فليس هدف هذه الحرب غنيمة، ولا أرضا خصبة، ولا رياء ولا سمعة، وإنما هو جهاد في سبيل الله، هدفه نصرة المسلمين، ورفع كلمة التوحيد، ونشر الخير والفضيلة، ودحر الباطل والرذيلة.

ولما كانت النتائج مبعث خوف وتوجس، فقد جاء السَّبر والتقسيم هنا ؛ ليضع نتيجتين لا يحتمل غيرهما:مَنْ مات مات شهيداً، وما عند الله خير له من الدنيا ؛ فقد انتقل

إلى ما هو خير منه وأفضل، ومن عاد منهم بقي حصناً لدينه، مدافعاً عن عقيدته، وقد عاد بالثواب الجزيل والأجر العظيم.

وقد أحسن أبو بكر ﷺ ختم خطبته بما يشعر المتلقي باحترامه لرأيه، وعدم تجاهله، فقال: (هذا رأيي الذي رأيت، فليُشر عليَّ امرؤ بمبلغ رأيه)، فترك بذلك حرية للتعبير، وفرصة لإبداء الرأي.

ويمكن تلخيص أهم سمات الخطبة الحجاجية فيما يأتي:

١- مجيء التفصيل بعد الإجمال، وهذا أسلوب منطقي.

٢- حسن التخلص الذي استطاع من خلاله الانتقال من التمهيد إلى غرض الخطبة وموضوعها.

٣- التقديم في الخطبة رافد من روافد الإقناع ووسيلة فنية من وسائل الاستمالة والتأثير.

٤- الالتفات المتمثل في انتقال الحديث من ضمير المخاطب في قوله رضي الله عنه: "فقد جمع كلمتكم وأصلح ذات بينكم" إلى ضمير الغائب، حيث قوله رضي الله عنه وقد أردت أن أستنفرهم إلى جهاد الروم"، وقد كان له دوره في براعة التخلص وحسن الانتقال.

الخطبة الثامنة

قام أبو بكر رضي الله عنه يحث الناس على جهاد الروم في موطن آخر، فقال:

(أيّها الناس إن الله قد أنعم عليكم بالإسلام، وأعزَّكم بالجهاد، وفضَّلكم بهذا الدين على أهل كل دين، فتجهزوا عباد الله إلى غزو بلاد الروم والشام، فإني مؤمِّر عليكم أمراء، وعاقد لهم ألوية، فأطيعوا ربكم، ولا تخالفوا أمراءكم، ولتحسن نيَّتكم وسيرتكم وطعمتكم، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون)[١].

---

١) كنوز العمال في سنن الأقوال والأفعال، ، علاء الدين البرهان فوري، ج٥، ص٦٧١.

بدأ أبو بكر ﷺ بقوله: (أيها الناس إن الله قد أنعم عليكم بالإسلام) فأكَّد الجملة بثلاثة مؤكدات، وهي :((إن))، و ((قد))، والإخبار بالجملة الفعلية عن المسند إليه المتقدم.

وقد بنيت الخطبة على مقدمة حجاجية تتمثّل في قوله: (أيّها الناس إن الله قد أنعم عليكم بالإسلام، وأعزَّكم بالجهاد، وفضَّلكم بهذا الدين على أهل كل دين) أعقبها بالنتيجة المتمثلة في قوله: (فتجهزوا عباد الله إلى غزو بلاد الروم والشام).

إن من أنعم الله عليهم بالإسلام، وجعل عزَّهم في الجهاد، وجعل دينهم أفضل الأديان، لا ينبغي لهم أن يتأخروا عن قتال الروم وفتح الشام، وكأنه بقوله: (أنعم عليكم بالإسلام) يقول: ألا يسركم أن تصل نعمة الإسلام إلى غيركم، كما وصلت إليكم، فإن فتح الشام ليس مقصوداً لسفك الدماء وأخذ الأموال، وإنما هو مشروع لنشر رقعة الإسلام، وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الشرك إلى عدل السماء، وبقوله: اوأعزَّكم بالجهاد) كأنه يقول: احذر الذل والضعة بترك الجهاد فكما أن الجهاد عزّ لأهل الإسلام، فإن ترك الجهاد ذلّ وهوان وصغار، وكأنّ أبا بكر ﷺ أيضا يقول: (ابتغوا العزة،واطلبوا القوة في غزو الروم).

وقد نادى أبو بكر ﷺ الناس بقوله: (عباد الله) ولم يقل (فتجهزوا أيها الناس ، أو تجهزوا أيها العرب) لتناسب ذلك مع المقدمة الحجاجية، التي اعتمدت في الإقناع إلى التذكير بنعمة الإسلام، وفضل هذا الدِّين على سائر الأديان، كما أن هناك لطيفة أخرى في مناداتهم بـ ((عباد الله)) وكأنه يقول أنتم تتعبدون الله بجهادكم في سبيله وغزوكم أعداءه وفتحكم للشام.

وقد شرع أبو بكر ﷺ في بيان خطبته لغزو الروم وضمنها النصح للغزاة، فقال: (فإني مؤمِّر عليكم أمراء،وعاقد لهم ألوية، فأطيعوا ربكم، ولا تخالفوا أمراءكم، ولتحسن نيَّتكم وسيرتكم وطعمتكم).

وختم أبو بكر ﷺ خطبته متمثلاً بالآية الكريمة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾[1] وتُتي مناسبة الآية للخطبة في كون معية الله وتأييده ونصره حليفاً لأهل التقوى والإحسان، والمقام هنا يتطلب أسباب النصر ؛ لاسيما أن المسلمين سيقاتلون أكثر الجيوش عدداً وأشدهم بأساً وأعظمهم عُدّة.

وقوله: (ولتحسن نيّتكم وسيرتكم وطعمتكم) قد جمعت أسباب إجابة الدُّعاء الذي هو مفتاح النصر، فإنّ صدق النِّية وحسن السيرة وطيب المطعم هي أسباب الإجابة، وطريق النصر، وقد أحسن ترتيبها بتقديم النية، لكونها تسبق العمل،وتكون سبب صلاحه أو فساده، فكما أن النية تأتي أولاً قبل العمل، فقد جاءت هنا قبل السيرة المتضمنة للعمل، ولما أمرهم بالإخلاص وحسن العمل ؛ ناسب ذلك أن يأمرهم بإطابة المطعم المتضمن النهي عن أكل الحرام، فكأنّ طيب السيرة لا يتم إلا بإطابة المطعم، إذ الإنسان تصدر عنه النية وموضعها القلب، والأقوال والأفعال ومصدرها الجوارح والأطراف، وربّما غفل الإنسان هنا عن مطعمه، ظاناً أنه لا يدخل تحت الأقوال والأفعال ؛ لذا جاء التنبيه عليه، ولاسيما أنه في مقام الغزو الذي تطمع فيه النفس إلى الأموال وتتشوف إلى الغنيمة ؛ مما يخدش الإخلاص، فإطابة المطعم تؤثّر على النّية والسيرة ؛ ومن هنا ناسب ذكرها، إضافة إلى ما يقع في الغزو من الغلول والسرقة، ونحو ذلك، فجاء المقام مقتضياً لذلك.

فإذا ما أتينا إلى سمات الخطبة الحجاجية، فإنها تكاد تكون مطابقة لسمات الخطبة السابقة،لاتحادهما في الموضوع،وهو الحث على قتال الروم ،ولتوافق الخطبتين في المضامين، فكلا الخطبتين بدأتا بالتذكير بنعم الله وختمتا بالحثّ على قتال الروم ، إلا أن الخطبة السابقة، قد جاء الالتفات فيها وسيلة لبراعة التخلص، وحسن الانتقال ؛ بينما اتسمت هذه الخطبة بتمثل مضامين القرآن بختمها بمعنى مستقى من آية من كتاب الله.

---

١) سورة النحل، ١٢٨.

الخطبة التاسعة

سار أبو عبيدة رضي الله عنه حتى إذ دنا من الجابية بلغه أن هرقل ملك الروم بأنطاكية،وأنه قد جمع لهم جموعا كثيرة، فكتب أبو عبيدة إلى أبي بكررضي الله عنه يخبره بذلك،فقام أبو بكر رضي الله عنه في الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

((أمّا بعد فإنّ إخوانكم المسلمين معافون مكلَّئون مدفوع عنهم، مصنوع لهم، وقد ألقى الله الرُّعب في قلوب عدوهم منهم، وقد اعتصموا بحصونهم، وأغلقوا أبوابها دونهم عليهم، وقد جاءتني رسلهم يخبروني بهرب هرقل ملك الروم من بين أيديهم، حتى نزل قرية من قرى الشام في أقصى الشام، وقد بعثوا إليَّ يخبرونني أنه قد وجه إليهم هرقل جنداً من مكانه ذلك، فرأيت أن أمدَّ إخوانكم المسلمين بجند منكم يشدد الله بكم ظهورهم، ويكبت بكم عدوهم، ويلقِي الرُّعب في قلوبهم، فانتدبوا رحمكم الله مع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، واحتسبوا في ذلك الأجر والخير، فإنكم إن نُصرتم فهو الفتح والغنيمة، وإن تهلكوا فهي الشهادة والكرامة))[1].

بدأت الخطبة بأخبار تبعث على التفاؤل وتقوّي العزيمة، وتبعث روح الأمل فإخوانهم المسلمون في الشام معافون محروسون، قد ألقى الله الرعب في قلوب عدوهم فاعتصموا بحصونهم، خوفاً وفرَقاً من المسلمين، وقد أغلقوا أبواب مدينتهم دون المسلمين،وهرب ملكهم هرقل من أيدي المسلمين.

لقد كان لهذا الخبر وهذه البشارة أثرها البالغ في تقوية العزيمة، وشد الشكيمة، ورفع الهمة، وكان هذا توطئة لحث المتلقين على اللّحوق بإخوانهم، ومؤازرتهم في قتال أعدائهم، وهذا من براعة الاستهلال الدّال على قوة الإقناع لدى أبي بكر ﷺ ومهارته في التأثير على المتلقي، واحتواء المستمع.

---

١ – جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوة، ج١، ص٢٠١.

ويأتي أبو بكر ﷺ إلى غرضه المتمثل في بعث مَدَد من المسلمين لإخوانهم في الشام، فيقول: (وقد بعثوا إليَّ يخبرونني أنه قد وجّه إليهم هرقل جنداً من مكانه ذلك، فرأيت أن أمدَّ إخوانكم المسلمين بجند منكم) إذن هذه هي النتيجة التي يريد أن يصل إليها أبو بكر ﷺ، وقد أحسن التمهيد لها قبل أن يصل إليها، ثم أعقبها بمسوّغات هذا المدد، وما يتوخّاه من ثمرات. وهذا ما يمكن اعتباره مقدمة حجاجية قد تأخرت على النتيجة على غير عادة أبي بكر ﷺ في أغلب خطبه، إذ كان التمهيد لها بذكر حال ملك الروم مع جيش المسلمين مبررا للبدء بالنتيجة قبل المقدمة الحجاجية ،المتمثلة في مسوغات إرسال هذا المدد، فقال: (يشدد الله بكم ظهورهم، ويكبت بكم عدوهم، ويلقِي الرعب في قلوبهم) فجاءت مسوغات إرسال هذا المدد : شداً لأزرهم، وكبتا لأعدائهم.

ولما ذكر أبو بكر ﷺ مسوّغات إرسال هذا البعث والمدد أمرهم، فقال: (فانتدبوا رحمكم الله مع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص).

وقد ختم خطبته بحسن التقسيم فقال: (فإنكم إن نُصرتم فهو الفتح والغنيمة، وإن تهلكوا فهي الشهادة والكرامة)وقد كان لحسن التقسيم هنا أثره البالغ في إقناع المتلقين، وإزالة التردد من نفوسهم، وتقوية عزائمهم، وكيف يتأخر أحد يعلم أنه بين نصر يحصل معه الفتح والغنيمة، أو شهادة تكون معها الكرامة.

ويمكن إيجاز أهم سمات الخطبة الحجاجية فيما يأتي:

١- براعة الاستهلال التي مهدت لموضوع الخطبة، وقد جاءت في صورة بشارة ساقها في أول الخطبة.

٢- تميّزت هذه الخطبة عن سابقتها بتقديم النتيجة على المقدمة الحجاجية، وإن كانت النتيجة قد جاءت بعد تمهيد وتوطئة حتى تقبل ولا ينفر منها.

٣- الاستعانة بالدعاء في ندبهم وبعثهم بقوله: (فانتدبوا رحمكم الله)

٤- حسن التقسيم مما كان له أثره البالغ في إقناع القوم بالنهوض للجهاد، والمبادرة للقتال

خاتمة البحث:

تناولت هذه الدراسة الحجاج في خطب أبي بكر ﷺ محاولة إبراز أهم قضايا الحجاج، وأبرزسماته الحجاجية، وقد جاءت قضايا الحجاج في الخطب على النحو الآتي:

١- أحقّية المهاجرين بالخلافة.

٢- إثبات موت النبي ﷺ.

٣- المبادرة إلى العمل الصالح قبل حلول الأجل.

٤- الإخلاص وإرادة وجه الله بالقول والعمل.

٥- شقاوة الملوك.

٦- عدم تجاهل فضل الأنصار ومكانتهم عند مساواتهم في العطاء مع غيرهم.

٧- النفرة في سبيل الله في أجواء تبعث على التردد.

ويمكن إجمال أهم السمات الأسلوبية للخطب موضع الدراسة على النحو الآتي:

١- حسن اختيار الألفاظ والإتيان بها في مواقعها، فلا نجد كلمة قلقة حلت محلّ غيرها، مما كان له أثره في تقوية حجج أبي بكر ﷺ.

٢- يبرز تأثر أبي بكر ﷺ في خطبه بالقرآن، في استشهاده بآياته واقتباس مضامينه وألفاظه، والقرآن أعظم حجة يُحتج بها المتكلم، وأشد الكلام أثراً في المخاطب وإقناعاً للخصم ؛ ولما كان المتكلم – أبو بكر ﷺ – هو أعظم الناس بعد النبي صلى الله عليه وسلم تأثراً بالقرآن وعملاً به، وكان المخاطبون هم صحابة رسول الله ﷺ الذين غيّر القرآن حياتهم، كان للاستشهاد بالقرآن أثره البالغ في تثبيت حججه، وإقناع الصحابة ببغيته.

٣- شدة تأثر أبي بكر ﷺ بحديث النبي ﷺ لفظاً ومعنى، لاسيما عند تشابه المواقف كما في خطبته للأنصار، حينما غضبوا عليه لما ساوى بينهم وبين الناس في قسمة أموال البحرين، وهذا ما حدث للنبي ﷺ حينما أعطى المؤلفة قلوبهم من

غنائم حنين، ولم يعط الأنصار، فوجدوا في أنفسهم حتى خطبهم وأقنعهم وأرضاهم.

٤- بناء خطب أبي بكر ﷺ على المقدمة الحجاجية والنتيجة عَقِبها، وإنما تقدمت النتيجة على المقدمة الحجاجية في موضعين، كان أحدهما لإثارة انتباه المتلقي، والآخر قد مهد له بتوطئة، جعلت لإتيان التيجة قبل المقدمة قبولا عند المستمع.

٥- براعة الاستهلال وحسن التخلص ميزتان ظاهرتان تميزت بهما خطب أبي بكر ﷺ.

٦- اعتماد خطب أبي بكر ﷺ في أغلبها على الأسلوب التقريري المتمثّل في الشرط القائم على المقدمة والنتيجة، وهذا ألصق بالحجاج من الأسلوب المجازي المبني على الصور البيانية، ونادراً ما تجد عنده صورة بيانيه من تشبيه أو استعارة ؛ لأن الأسلوب الخطابي عنده ملتصق بالأرض والواقع.

٧- أسلوب مداراة الخصم ومجاراته يتمثل في بعض خطب أبي بكر ﷺ، استطاع من خلاله أبو بكر ﷺ أن يكسب خصمه، ويصل معه إلى مراده دون أن ينفِّره.

٨- كثرة الطباق والمقابلة ، التي من شأنها إبراز الحقيقة المرادة وإظهارها بوضوح، ودعمها في ذهن المتلقي ؛ إذ يتم إبراز الشيء من خلال إبراز ضده ونقيضه.

٩- توكيد الجمل من خلال التكرار اللفظي تارة، وحشد أدوات التوكيد تارة أخرى، مما يناسب حال من يحتج لقضايا، أما م من ينكرها أو يجحدها.

١٠- أسلوب الاستدراج ؛ مما يكبح نفور الخصم، وذلك ببناء الكلام على مسلمات متفق عليها ؛ لتكون أسرع إلى القبول والإذعان.

مراجع البحث

١- الاحتجاج العقلي والمعنى البلاغي ، ناصر السعيدي، رسالة ماجستير بجامعة أم القرى، لم تطبع.

٢- الاحتجاج في القرآن الكريم، زينب الكردي، رسالة دكتوراه بجامعة الإمام، لم تطبع بعد.

٣- أسرار البلاغة، عبدالقاهر الجرجاني، قرأه وعلّق عليه:محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة ،ط١، ١٤١٢ه.

٤- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، تحقيق:بهيج غزاوي، دار إحياء العلوم،بيروت، ١٤١٩هـ.

٥- البديع، عبدالله بن المعتز، دار الجبل، بيروت،ط١،١٤١٠هـ.

٦- البيان والتبيين، الجاحظ،تحقيق:فوزي عطوي،دار صعب، بيروت،ط١،١٩٦٨م.

٧- تأريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ١٤٠٧هـ.

٨- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الأصبع المصري، تحقيق:د. حفني محمد شرف،لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٣٨٣هـ.

٩- جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت، بيروت، ط١، ١٣٥٢هـ.

١٠- الحجاج بين المنوال والمثال "نظرات في أدب الجاحظ وتفسير الطبري، د. علي الشعبان، مكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، ٢٠٠٨م.

١١- الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلي إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه، د. سامية الدريدري، عالم الكتب الحديث،أربد، الأردن،٢٠٠٨م

١٢- الحجاج مفهومه ومجالاته "دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم:د. حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، الأردن،ط١،١٤٣١.

١٣- الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، د. عبدالله صولة، دار الفارابي،بيروت، ط١٢٠٠١م.

١٤- الحجاج في درس *الفلسفة*، مليكة غبار وأحمد أمزيل وعلي أعمور، أفريقيا الشرق، المغرب،٢٠٠٦م.

١٥- خاص الخاص، أبو منصور الثعالبي، تحقيق: حسن الأمين، مكتبة الحياة، بيروت، ت.د.

١٦- الخطابة، أرسطو، تعريب: عبدالرحمن بدوي ، دار الشئون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد ، ١٩٨٦.

١٧- زهر الآداب وثمر الألباب، أبو إسحاق إبراهيم بن علي القيرواني، شرحه وعلّق عليه:د. يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية،بيروت، ط١، ١٤١٧هـ.

١٨- السيرة النبوية،ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وعبدالحفيظ شلبي، المكتبة الفيصلية، ت.د.

١٩- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الطلائع، القاهرة، ت.د.

٢٠- ٢٠ – كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، تحقيق:علي الإبياري،ومحمد أبوالفضل،ط١،١٩٥٢م.

٢١- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علاء البرهان فوري، تحقيق: بكري حياتي وصفوت السقا، مؤسسة الرسالة، ط ٥، ١٤٠١هـ.

٢٢- لسان العرب، ابن منظور،طبعة دار إحياء التراث العربي.

٢٣- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق:د بدوي طبانة ، دار الرفاعي، الرياض، ط٢، ١٤٠٣هـ.

٢٤- مسند أحمد.

٢٥- المقدمة، ابن خلدون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١

٢٦- المنهاج في ترتيب الحجاج أبو الوليد الباجي، دار الغرب الإسلامي،ط٢،١٩٨٧م

٢٧- نحو مقاربة حجاجية للاستعارة، أبو بكر الغزاوي،مجلة المناظرة، المغرب،السنة الثانية، العدد الرابع،شوال ١٤١١هـ

* * *